الحداثة في الإسلام دراسة قرآنية

م.د. قيس عبد الله أحمد
سلطان دكتوراه فلسفة أصول الدين ـ تخصص تفسير
سلطان الجامعة المستنصرية ـ كلية التربية الأساسية
ـ قسم التربية الإسلامية
هاتف: 07902898311
سلطان Kais alduhimai @ gmail.com

خلاصة البحث

الحداثة فلسفة التقدم كما يعبّر عنها خطابها، وتمهد لهذا التقدم بخلق بنية تحتية في المجتمع قوامها العقلانية والديمقراطية والعلمانية والقطعية مع الماضي، إلاّ أنها في واقعيتها تمثل خطاب النخبة وليس خطاب المجتمع.

فالحداثة التي تطرح نفسها على أنها خطاب التقدم، تحولت من إشكالية ترتبط بالتغيير الاجتماعي أو التقدم الاجتماعي، إلى إشكالية فكرية فلسفية، محيطها النظريات والأفكار وليس الواقع والمجتمع.

فالحداثة في شكلها الغربي تتميز بنفيها الجانب الروحي في الإنسان وما يصدر عن هذا النفي من فصل الدين عن السياسة، وعد القضايا الميتافيزيقيا هي رواسب لمرحلة تأريخية قد انتهت، وطرحها للبديل المتمثل في الحرية والإنسان والعقل، وما يصدر عنه من تقدم وعلم.

والحداثة في الفكر الإسلامي دعوة للمعاصرة والتطور والتقدم وجاء بأفضل رؤية للإنسان تتكامل فيها الأبعاد المختلفة الروحية والعقلية والمادية، فأول آية نزلت في القرآن الكريم آية " إقرأ " وهذا يعني أنه اهتم بالعلم والمعرفة، فالمكانة الخاصة التي يعطيها الإسلام للعقل تنفي عن الإسلام الجمود والانغلاق.

والقرآن الكريم هو الذي اكتشف وجود السُنن والقوانين الطبيعية والتاريخية والاجتماعية التي تحكم حركة التأريخ في عدد كثير من الآيات، ومعنى هذا أن الإسلام في جوهره جهاد من أجل حياة أفضل وهكذا يربط الإسلام بين الدين والدنيا.

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، والحمد والثناء لله رب العالمين، وسلام الله وصلواته على محمد خاتم النبيين محمد وآله الطاهرين، وأصحابه المتقين.

وبعد:

فالتقدم لا يتحقق إلاّ كإنجاز اجتماعي، قد يبدأ من الفرد، أو النخبة، أو السلطة، لكنه لا يتحول من القوة إلى الفعل إلاّ بحركة المجتمع، حين يكون مستوعباً لفلسفة التقدم وفاعلاً في تحققه. أما إذا انفصل التقدم عن المجتمع، وارتبط بالسلطة أو بطبقة معينة، فإنه يكون مشوّهاً ومبتوراً ولا يعطي منجزاته الشاملة والعامة.

والحداثة مع أنها فلسفة التقدم كما يعبّر عنها خطابها، وتمهد لهذا التقدم بخلق بنية تحتية في المجتمع قوامها العقلانية والديمقراطية والعلمانية والقطعية مع الماضي، إلاّ أنها في واقعيتها تمثل خطاب النخبة وليس خطاب المجتمع... والحداثة التي تطرح نفسها على أنها خطاب التقدم، تحولت من إشكالية ترتبط بالتغيير الاجتماعي أو التقدم الاجتماعي، إلى إشكالية فكرية فلسفية، محيطها النظريات والأفكار وليس الواقع والمجتمع[1].

وتناولتُ في بحثي المختصر هذا الحداثة والمجتمع، في المبحث الأول الحداثة في اللغة والاصطلاح. أما المبحث الثاني فقد بيّنتُ فيه مفهوم الحداثة على ضوء الفكر الغربي ونقده من قبل الفكر الإسلامي، ولحظتُ الاختلاف الكبير بين

الحداثة التي تعتمد على الفكر الإنساني الوضعي، والحداثة التي تعتمد على الفكر ذات المصدر الإلهي.

أما المبحث الثالث سلّطتُ الضوء فيه على الحداثة في الإسلام كحديث جديد، ضمَّ فيه رؤية الإسلام عن الإنسان، ثم أنهيتُ البحث بذكر النتائج التي توصلتُ إليها.

المبحث الأول/ الحداثة لغة واصطلاحا

1. التعريف اللغوي للحداثة:

ترد في المعجمات لفظة (حدث) بصيغة الحادث وهو ما يجدّ ويحدث وهو ضد القديم والحَدَاثة بفتح الحاء والدال هي سن الشباب، ويقال أخذ الأمر بحداثته أي بأوله وابتدائه، والمُحْدَثْ ما لم يكن معروفاً في كتاب ولا سُنة ولا إجماع، والمحدِث بكسر الدال هو المجدّد في العلم والفن[2].

والحدوث كون الشيء بعد أن لم يكن، واستحدثت خبرًا: أي وجدتُ خبرًا جديدًا، ومستحدثات: مولدات[3].

2. التعريف الاصطلاحي للحداثة:

يرى جابر عصفور أنَّ الحداثة: " هي البحث المستمر للتعريف على أسرار الكون من خلال التعمق في اكتشاف الطبيعة والسيطرة عليها وتطوير المعرفة بها، ومن ثمَّ الارتقاء الدائم بموضع الإنسان من الأرض، أما سياسيًا واجتماعيًا فالحداثة تعني الصياغة المتجددة للمبادئ والأنظمة التي تنتقل بعلاقات المجتمع من مستوى الضرورة إلى الحرية، من الاستغلال إلى العدالة، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن الاستهلاك إلى الإنتاج، ومن سطوة القبيلة أو العائلة أو الطائفة إلى الدولة الحديثة، ومن الدولة التسلطية إلى الديمقراطية، فالحداثة تعني الإبداع الذي هو نقيض الإتِّباع "[4].

ويرى ناصيف نصار أنَّ الحداثة: " هي خروج من التقاليد وحالة تجديد، وتتحدد الحداثة في هذا المعنى بعلاقتها التناقضية مع ما يسمى بالتقليد أو التراث أو الماضي "[5].

نشأت الحداثة في أوربا منذ اللحظة الأولى التي تفككت فيها الثقافة الدينية وظهرت الثقافة العلمانية، مناهضة لجميع مبادئ الميثولوجيا التي قام عليها الدين، أي مع ولادة النظام الرأسمالي في أوربا.

وهكذا خرجت الحداثة من رحم الإقطاع وكان عنوانها الأساس في الفكر هو (التنوير) وفي الحكم أو السلطة هو (العلمانية) أي فصل الدين عن الدولة.

ومن الفهم السابق للتعريفات ربما تستوقفنا مفردة أو تعريف ذُكِرَ في قاموس أكسفورد الحديث: " فالتحديث يعني التجدد أو جعل الشيء ملائمًا لمقتضيات العصر "[6].

فمسألة الحداثة تعني تغييرًا وتطورًا وتبديلاً وابتكارًا وتجديدًا، وهذه أمور تتبدل بتبدل الحاجة الإنسانية أو الفكر الإنساني، ومن هنا فالحداثة من منظور الفكر الغربي هو حداثة نسبية، أما حداثة القرآن فهي حداثة مطلقة مستمرة، أي أن القرآن لا يتعرض إلى الأفكار والحلول الجزئية، أو التي يمكن انتقادها على أساس جزئيتها، ولا يمكن وصفه بكتاب المرحلة فقط في مختلف المعالجات التي يطرحها، بل بكتاب المراحل كلها، فهي حداثة مستمرة مطلقة لا يمكن أن تُبدَّل مع تغيُّر الأزمان؛ لأنها مستمدة من الله سبحانه، إذ إننا لا نجد في نصوص الحداثويين الحاليين من يؤكد أنهم يملكون المنهج النهائي والكلمات التامات التي لا نقص فيها في فرع واحد من فروع العلوم أو المعارف أو غيرها، لكن القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، بل إنَّ القرآن يخرس المقدرة العلمية الحداثوية بقوله

تعالى: "**يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**"(7).

" فالآيات القرآنية كلها تدلُّ على : التفوق والاقتدار المطلق لكل ما هو موجود في هذا الوجود، وتدلُّ على المعرفة والعلم المطلق والإحاطة التامة بكل ما هو موجود في هذا الوجود، والإتقان والتقدير لكل الأشياء، والابتكار المطلق لكل الأشياء "(8).

المبحث الثاني
مفهوم الحداثة على ضوء الفكر الغربي والفكر الإسلامي

إن الحداثة في التصور الغربي تنفي وجود الله. فالحداثة بإطارها العام، تتضح في فلسفة الأنوار، هو أنَّ الفكر البشري غير محتاج إلى وجود اله؛ لتأسيس القيم الأخلاقية، وتفسير العالم.

إذ توسّع مجال تحرر الإنسان، بحسب هذه الفلسفة، وذلك لنفيها لوجود الله أو لفصلها الدين عن السياسة. وقد بيّن الإمام الصدر هذه الإشكالية بشكل مباشر أو غير مباشر على المستوى الأخلاقي والمنهجي والميتافيزيقي، حيث قال: "الإنسان الأوربي الحديث في بدايات عصر النهضة وضع مثلاً أعلى وهو الحرية؛ لأنه رأى أن الإنسان الغربي كان محطمًا ومقيدًا... كان مقيدًا في عقائده العلمية والدينية بحكم الكنيسة وتعنتها... أراد الإنسان الأوربي الرائد لعصر النهضة أن يحرر هذا الإنسان من هذه القيود... وهذا شيء صحيح، إلاّ أنَّ الشيء الخاطئ في ذلك هو التعميم الأفقي، فإنَّ هذه الحرية بمعنى كسر القيود... هذه قيمة من القيم، هذا إطار القيم، ولكن هذا وحده لا يصنع الإنسان، ليس هذا هو المثل الأعلى... هذا الإطار بحاجة إلى محتوى وإلى مضمون، وإذا جرّد هذا

الإطار عن محتواه سوف يؤدي إلى الويل والدمار الذي تواجهه الحضارة الغربية اليوم "[9].

لقد بدأ ظهور الحداثة من القرن السادس عشر، وذلك بسبب التغيرات الجذرية في الميادين الدينية والعلمية والأخلاقية، فقد أصبحت هذه التغييرات مقدمة وتمهيد إلى التقدم في مراحل لاحقة في الميادين السياسية والتكنلوجيا.

إنَّ صفة الحداثة تتصف بأنها ليست مراحل انتقالية لعصرٍ لاحق. فالغرب ينظر إلى الحداثة كغاية ذاتية تكتفي بنفسها، أي كمرحلة ينتهي التأريخ بها لا أن تكون تمهيدًا إلى شيء آخر.

"فمعنى الحداثة لا يوجد خارجها. فالحداثة هي الواقع وهي المعنى، أي هي الواقع وهي المثال في نفس الوقت"[10].

يقول آلان تورين: " لقد نظر الغرب إلى الحداثة وعاشها كثورة، أصبح العقل لا يعترف بأي شيء بصورة مسبقة سواء في ميدان العقيدة أو في ميدان التنظيم الاجتماعي والسياسي ما لم يكن قائمًا على أدلة علمية، فمن العناصر الجوهرية الإيديولوجية الحداثة أنَّ المجتمع هو مصدر القيم وأنَّ الخير ما ينفع المجتمع، والشر هو ما يضرّ بوحدة المجتمع "[11].

" لقد أنتجت أزمة القيم في الحضارة الغربية فكرًا متأزمًا، بدلاً من أنَّ هذا الفكر حلٌّ للأزمة، أصبح مجرد انعكاس لها، فظهرت النفعية والماركسية والبرجماتية والوجودية، كل هذه المذاهب قد فقدت العنصرين الجوهريين اللذين تتميز بهما الفلسفة: الموقف النقدي وقوة التجاوز، تجاوز الواقع لتغييره، فالفلسفة

تتميز بالموقف النقدي الذي يمنحها قوة التجاوز، تجاوز الواقع الفاسد لتصور واقع أحسن منه"[12].

" إنَّ فصل السياسة عن الدين، وحصر الفلسفة في مجال فلسفة العلوم من دون طرح للمشكلة الميتافيزيقية، جعل الفكر الغربي ــ على غرار المجتمع الغربي ــ لا يهتم بمشكلة المصير، ما هو مصر الحياة البشرية؟ ما هو مصير الثقافة؟ وما هو الهدف الذي تسعى نحوه؟ فمصدر الأزمة يكمنُ في الحداثة نفسها لا الحداثة في ذاتها، أي من حيث هي عملية تغيير كل ميادين الحياة الاجتماعية، بل الحداثة في صورتها الغربية وهي صورة تتميز بنفي الجانب الروحي في الإنسان وما ينتج عن هذا النفي من فصل السياسة عن الدين، واعتبار القضايا الميتافيزيقيا مجرد رواسب لمرحلة تأريخية قد انقضت وقد أدى نفي أو إبعاد الروحانية عن الحياة الاجتماعية إلى نفس أي أساس للقيم الأخلاقية، فأصبحت هذه الأخيرة مجرد انعكاس للواقع بدلاً من تغيير الواقع وتوجيهه"[13].

" فالحداثة انتقدت ورفضت الكنيسة ووقفت موقفًا مضادًا لكل القيم المفروضة على المجتمع باسم الدين كما تمليه الكنيسة، وطرحت البديل المتمثل في الإنسان والحرية والعقل وما ينتج عنه من علم وتقدم، فالإنسان هو الذي أصبح مصدراً ومقياسًا لكل القيم" [14].

ومن هنا فالحداثة ليست لها " صورة واحدة حتى تشكل مرحلة تأريخية حتمية يجب أن تتجه نحوها كل الشعوب، فالحداثة كما تحققت في الغرب هي مجرد صور حركات التأريخ الممكنة، إنها تمثل الصورة المنحرفة لحركة التأريخ " [15].

ويقدّم " غالي شكري " الحداثة كفلسفة كونية ومذهب اجتماعي، فهي عنده " مفهوم حضاري ينشد تصورًا جديدًا للكون والحياة والإنسان والمجتمع "[16]، وهناك من عدّها " أسلوبًا جديدًا في حرب الإسلام "[17]. وفي هذا السياق صدرت مجموعة أعمال تهاجم الحداثة بشدة ومبالغة وتحذر منها[18].

ويرى الإمام الصدر: " أنَّ الحداثة قد غيّبت ونفت معنى الوجود" [19]، هذا عامل أساس من عوامل أزمة الحضارة الغربية، فالإمام يرى: أنَّ غياب القيم الأخلاقية والروحية في حضارة الغرب جعلت من الإنسان غربي إنسانًا قد جوِّع واسترقَّ... الإنسان الأوربي جعل الحرية هدفًا، وهذا صحيح، ولكنه صيّر هذا الهدف مثلاً أعلى، بينما هذا الهدف ليس إلاّ إطارًا في الحقيقة. وهذا الإطار بحاجة إلى محتوى وإلى مضمون، وإذا جُرِّدَ هذا الإطار عن محتواه سوف يؤدي إلى الويل والدمار، إلى الويل الذي تواجهه الحضارة الغربية اليوم، التي صنعت للبشرية كل وسائل الدمار[20].

فالحداثة في الغرب نادت بقيم منها: (الحرية والمساواة والعدالة والتقدم) ولكن تحولت وصارت "وسيلة لأبشع الأعمال، لقد استعمرت الشعوب، واستُغِلَّت وأبيدت الأقليات باسم الحرية وباسم التقدم والحداثة، وكل هذا وقع... إضافة لما سبق، فإنَّ هذه القيم مرتبطة بالقانون في النظام الرأسمالي، فالناس متساوون أمام القانون حتى ولو كانت أوضاعهم الاجتماعية مختلفة. أما في النظام الاشتراكي فهذه القيم تمثل هدفًا يقود السياسة ويوجهها، مع العلم بأنَّ البنية الاقتصادية هي مصدر هذه القيم بالنسبة لماركس، في حين أنَّ هذه القيم في الرؤية الإسلامية هي واجبات شرعية ذات أبعاد أخلاقية وحضارية " [21].

" ومن هنا يكفي للفرد في النظام الرأسمالي في موقفه من القيم أن يحترم القانون، يكفي للفرد في النظام الاشتراكي في موقفه من القيم (قيم الحداثة) أن يلتزم المجال السياسي، أي يلتزم مع متطلبات الطبقة الحاكمة (البروليتاريا). أما في الرؤيا الإسلامية فالفرد لا يكتفي بهذه المواقف، فهو تجاه قيم تخصُّ ذاته في علاقتها مع الله وفي علاقتها بالمصير الدنيوي والآخروي معًا، لذلك فموقفه من هذه القيم هو موقف تعبدي، وليس مجرد موقف احترام وانتماء " [22]... وهذا ما أراد الإمام الصدر أن يبيّنه في كتاباته في المجال السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، وفي مجال العقيدة، عبر مؤلفاته (فلسفتنا، اقتصادنا، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، التفسير الموضوعي... وكتبه الأُخرى).

إنَّ الفكر الإسلامي لا يرفض مبادئ الحداثة (كالعقلانية[23] والحرية والتقدم) في حد ذاتها، بل يرفضها لأنها اتخذت معنى خاصًا من جراء انفصالها عن الله. فهي تتخذ صورة أُخرى ومعنى جديدًا لمّا يتم ربطها بالغيب، فالإسلام لا يرفض التقدم، بل مفهوم التقدم في الرؤية الإسلامية أقوى وأوسع من مفهوم التقدم في الرؤية الغربية، وكل المفاهيم الأُخرى كالحرية والعدالة وغيرهما[24].

المبحث الثالث

مَفهوم الحَداثة في الإسلام

عنوان الحداثة والإسلام، حديث جديد، ولكن كان الحديث قبل ذلك عن الحداثة والتراث، القديم والجديد، الأصالة والمعاصرة. وهناك مؤلفات عدّة صدرت حول هذا الموضوع منها:

1- الإسلام والحداثة لمؤلفه عبد المجيد الشرفي[25].

2- الإسلام وضرورة التحديث لـ : فضل الرحمن.

3- أسلحة الحداثة للشيخ عبد السلام ياسين باللغة الفرنسية .

أما على مستوى الصحافة والمجلات والدورات العربية فقد تزايد الاهتمام بهذا الموضوع بصورة ملحوظة[26].

والحداثة من زاوية فلسفية هي رؤية للإنسان، وقيمة الحداثة في تكوين الإنسان بالقدرة التي يبدع فيها الحداثة ويمارسها، فليست هناك حداثة بدون إنسان حديث أو معاصرة بدون إنسان معاصر، وإنَّ الإسلام جاء بأفضل رؤية عن الإنسان، تتكامل فيها الأبعاد المختلفة الروحية والعقلية والمادية.

هذه الرؤية هي التي يحتاجها الإنسان لهذه الحياة في تحولاتها، وتبدلاتها، وتغيراتها، وتطوراتها، وفي كل أزمنتها، فالإسلام جاء لكي يلبي حاجات الإنسان في كل زمان ومكان، ومن الدلائل التي تكشف عن مكونات المعاصرة في الإسلام مع أن الإسلام كله دعوة للمعاصرة والتطور والتقدم، منها:

أولاً: إنَّ أول آية نزلت في القرآن الكريم آية " إقرأ "[27] وهذا يعني أن الإسلام قبل أن يشرع للعبادات أو المعاملات شرع للعلم والمعرفة، وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: " أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " دليل على مواكبة التطور والتقدم، وهذا من أهم شروط المعاصرة[28].

ثانيًا: المكانة الخاصة التي يعطيها الإسلام للعقل، فهو أول ما خلق الله وأزكى خلقه، وجوهر الإنسان وأعظم طاقة زوده الله بها[29]. والقرآن كله دعوة إلى العقل والتفكر والتدبر والتفقه والتعلم. والعقل في القرآن ورد بصيغ متعددة، بين صورة الرجاء "**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**" [30]، وصورة الاستفهام "**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**" [31].

وهذه النظرة من الإسلام إلى العقل تنفي عنه تهمة الجمود والانغلاق والاقتصار على العتيق والقديم فلكل شيء آلة وعدة، وآلة المؤمن العقل، ولذلك ورد أن منازل الناس يوم القيامة على قدر نياتهم وعقولهم[32].

ثالثًا: رؤية الإسلام للعلم، فلا يوجد ديانة أو عقيدة أو مذهب أو فلسفة، قديمة أو حديثة أو معاصرة، أعطت للعلم من المكانة والشرف والتعظيم كما أعطاها الإسلام له. فعن النبي "صلّى الله عليه وآله": " ما أهدى المرء المسلم إلى أخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى ويرده عن ردى "[33]، وقوله "صلّى الله عليه وآله" : " قليل العلم خير من كثير العبادة "[34]، وقوله صلّى الله عليه وآله: " من غدا في طلب العلم أظلت عليه الملائكة، وبورك له في معيشته، ولم ينقص من رزقه "[35]. وفي رأي الشيخ " زين الدين العاملي " المعروف بالشهيد الثاني (ت 965هـ)" إنَّ الله سبحانه وتعالى جعل العلم هو السبب الكلي لخلق هذا العالم، العلوي والسفلي طرًا، وكفى بذلك جلالةً وفخرًا، قال الله تعالى في محكم الكتاب تذكرة وتبصرة لأولي الألباب: " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**" [36] وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العِلْم، لاسيّما علم التوحيد الذي هو أساس كل علم، ومدار كل معرفة، وجعل سبحانه العلم أعلى شرف، وأول منّة امتنَّ بها على آدم"[37].

" ومن ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حظه، ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله فيها حيث يقول: "**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا...** " [38]. ولكن الذين يؤمنون بأنَّ المادة هي الموجود الوحيد، يسخرون من هذه النظرة إلى العلم لأنَّ العلم كله بزعمهم محصور بما تراه العين، وتلمسه اليد، ويشمه الأنف، ويقرع السمع، وإلخ فلا أسرار في طيات الكون ولا غرائز في أعماق النفس، أما حكم العقل فمجرد أحلام وأوهام.

ونسأل هؤلاء: هل يستند حكمكم هذا إلى العقل أو الحواس؟

فإنْ قالوا: إلى العقل. فقد ناقضوا أنفسهم... وإنْ قالوا: إلى الحواس، كـذبوا؛ لأنَّ وظيفة الحواس أن تشهد لا أن تحكم " [39].

رابعًا: إنَّ القرآن الكريم هو الذي اكتشف وجـود السُـنن والقـوانين الطبيعيـة والتأريخية والاجتماعية التي تحكم حركة التأريخ والمجتمعات والحضارات فـي صعودها وهبوطها، في تقدمها وتراجعها[40]، وقال الإمـام الصـدر: " إنَّ هـذه الفكرة القرآنية عن سُنن التأريخ بُلورت في عدد كثير من الآيات بأشكال مختلفـة وألسنة متعددة، في بعض هذه الآيات أعطيت الفكرة بصـيغتها الكليّـة، كقولـه تعالى: "**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْـتَقْدِمُونَ**"[41]، وفي بعض هذه الآيـات أعطيت على مستوى التطبيق على مصاديـق ونماذج، كقوله تعالى: " **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُـذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّـى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَـإِ الْمُرْسَـلِينَ**" [42]، وفـي بعض الآيات وقع الحث على الاستقراء وعلى الفحـص الاسـتقرائي للشـواهد التأريخية من أجل الوصول إلى السنة التأريخية، كقوله تعالى: "**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِـي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَـيْهِمْ وَلِلْكَـافِرِينَ أَمْثَالُهَا**" [43]... من مجموع هذه الآيات الكريمة يتبلور المفهـوم القرآنـي الـذي أوضحناه، وهو تأكيد القرآن على أنَّ الساحة التأريخية لها سُنن ولها ضوابط ... "[44].

خامسًا: إنَّ القرآن الكريم يعرض لنا أحد أهم العقبات التي واجهت حركات الرسل والأنبياء في مجتمعاتهم. وهي عقبة تقليد الآباء وأتباعهم بغير هدى ولا علـم ولا دراية كقولـه تعالى: " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا**

عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" [45]، **" بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ"** [46].

وهناك آيات كثيرة تتحدث عن تقليد الآباء الذي قد تحول في تلك المجتمعات، وقد عالج القرآن الكريم في هذه الآيات مشكلة ثقافية بين الفكر الجديد (الإسلامي) وبين ثقافة الماضي وتقليد الآباء[47].

سادسًا: إنَّ الإسلام يبعث في الإنسان المسلم دوافع وحوافز التطور المستدام، فهو يحث على العمل من أجل التطور والتحول ولكن إلى الأحسن والأقوم، كما قال تعالى: **"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا"** [48] ومعنى هذا إنَّ الإسلام مع ما ينفع الناس في جميع الحالات، ومهما تغيرت الأزمنة والبيئات[49]. وقال تعالى: **"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"** [50]. وليس من شك أن الأنفع والأصلح لجميع الناس لا يتحقق ولن يتحقق إلاّ مع التعاون الشامل الكامل، وهذا هو الأساس الذي بنى عليه الإسلام جميع أحكامه وتعاليمه[51]. فهو من جهة يطالب الإنسان بالعلم والعمل الصالح ومن جهة أخرى يدعو لمحاسبة الذات لأنه يدعو إلى التجديد والتطوير، ولذلك ورد عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): **" ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل خيراً استزاد الله منه وحمد الله عليه، وإن عمل شراً استعاذ الله منه وتاب إليه "**[52] وعن علي (عليه السلام): **" طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله "**[53]. وعنه (عليه السلام): **" مَنْ حاسب نَفْسهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ، وَمَنْ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ "**[54]،

فالإسلام الذي يدعو لمحاسبة الذات إنما يدعو إلى التجديد والتطوير، والذي يدعو إلى العمل إنما يدعو إلى الإنتاج والعطاء والمبادرة.

سابعًا: المعاصرة في جوهرها معرفة الزمان معرفة متجددة وفاعلة وفي القرآن الكريم "**وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**" [55].

في هذه السورة يُقْسِمُ القرآن بالزمان، ويلفت نظر الإنسان أنه في خسر بنقصان عمره، ومتى ما أدرك الإنسان هذه الخسارة فهو بداية الإحساس بالتقدم والتطور نحو الأحسن، وعن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): " العَالِم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس "[56]. وعن الإمام علي (عليه السلام): " أعرف الناس بالزمان من لم يتعجب من أحداثهِ "[57].

إنَّ هذه النصوص الدينية جاءت حول معرفة الزمان، وفيها تأكيد واضح على تمثل المعاصرة، وأن يكون المسلم حاضرًا وفاعلاً في عصره وزمانه، فالفكر الإسلامي فيه من القدرة على التجدد والإحياء والنهوض، ولذلك ذهب بعض العلماء والمفكرين والباحثين في داخل الغرب إلى هذا المفهوم، وهو ما صرّح به " مراد هوفمان " في كتابه " الإسلام كبديل "[58].

نتائج البحث

بعد حمد الله والثناء عليه وبتوفيق منه، توصلنا إلى النتائج الآتية:

1- الحداثة في اللغة: هو ما يجدّ ويحدث وهو ضد القديم وفي الاصطلاح كما يرى ناصيف نصار: هي خروج من التقاليد وحالة تجديد، وتتحدد الحداثة في هذا المعنى بعلاقتها التناقضية مع ما يسمى بالتقليد أو التراث أو الماضي.

2- ذُكِرَ في قاموس أكسفورد الحديث: يعني التجدد أو جعل الشيء ملائماً لمقتضيات العصر.

3- نشأت الحداثة في أوربا منذ اللحظة الأولى التي تفككت فيها الثقافة الدينية وظهرت الثقافة العلمانية. أي مع ولادة النظام الرأسمالي في أوربا.

4- إن الحداثة في صورتها الغربية تنفي وجود الله، فهي غاية ذاتية تكتفي بنفسها، كمرحلة ينتهي عندها التأريخ، فهي المعنى، وهي الواقع، أي هي المثال، والواقع في الوقت نفسه.

5- إن الحداثة في شكلها الغربي، تتميز بنفيها الجانب الروحي عند الإنسان، وما يصدر عن هذا النفي من فصل الدين عن السياسة، وعدّ القضايا الميتافيزيقيا هي مرحلة تأريخية قد انتهت، وطرحها للبديل المتمثل في الحرية، والإنسان، والعقل، وما يصدر عنه من تقدّم وعلم.

6- الناس متساوون أمام القانون في النظام الرأسمالي وأن كان وضعهم الاجتماعي مختلف. أما في النظم الاشتراكية، فالبنية الاقتصادية هي مصدر قيم الحداثة لماركس، غير أن هذه القيم في المنظومة الإسلامية هي واجبات حددها الشارع المقدس، ذات أبعاد حضارية وأخلاقية.

7- إنَّ الفكر الإسلامي لا يرفض مبادئ الحداثة وقيمها (كالعقلانية والحرية والتقدم) بذاتها، بل أنه يرفضها إن اتخذت مفهوماً خاصًا.

8- إنَّ الفكر الإسلامي دعوة للمعاصرة والتطور والتقدم وجاء بأفضل رؤية عن الإنسان تتكامل فيها الأبعاد المختلفة الروحية والعقلية والمادية، ومن الدلائل التي تكشف عن مكونات المعاصرة في الإسلام ما يأتي:

9- رؤية الإسلام للعلم، فأول آية نزلت في القرآن الكريم آية " إقرأ " وهذا يعني أنه اهتم بالعلم والمعرفة.المكانة الخاصة التي يعطيها الإسلام للعقل التي بـــدورها تنفي عن الإسلام الجمود والانغلاق.

10- المكانة الخاصة التي يعطيها الإسلام للعقل التي بدورها تنفي عن الإســـلام الجمود والانغلاق

11- إنَّ القرآن الكريم هو الذي اكتشـــف وجـــود السُـــنن والقـــوانين الطبيعيـــة والتأريخية والاجتماعية التي تحكم حركة التأريخ في عدد كثير من الآيات، كتقليد الآباء والتمسك بعاداتهم ودياناتهم الذي قد يحول عن وصول تلك المجتمعات إلى الفكر الجديد المتمثل بالإسلام الذي يبعث في الإنسان المســـلم دوافـــع وحـــوافز التطور والتحول إلى الأحسن والأفضل. ومعنى هذا أن الإسلام في جوهره جهاد من أجل حياة أفضل، وهكذا يربط الإسلام بين الدين والدنيا.

هوامش البحث:

(1) زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات: 64-65، ويُنظر: د. برهان غليون، اغتيال العقل: 296.

(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: 160.

(3) يُنظر: نديم مرعشلي ــ أسامة مرعشلي، الصحاح في اللغة والعلوم: 315.

(4) د. أحمد محمد زايد، مقاربة بين مفهوم الحداثة وما بعد الحداثة: 3.

(5) المصدر نفسه: 3.

(6) قاموس أكسفورد الحديث: 482.

(7) الحج: 30.

(8) د. مصطفى الشريف، الإسلام والحداثة: 12.

(9) محمد باقر الصدر، عناصر المجتمع في القرآن الكريم: 135.

(10) محمد باقر الصدر، رسالتنا: 46-47.

(11) آلان تورين، نقد الحداثة: 25-30.

(12) د. محمد عبد اللاوي، فلسفة الصدر: 329.

(13) المصدر نفسه.

(14) المصدر نفسه.

(15) د. محمد عبد اللاوي، فلسفة التأريخ في كتابات الإمام الصدر: 282.

(16) د. محمد العبد حمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر: 60.

(17) جمعان عائض الزهراني، الحداثة أسلوب جديد في حرب الإسلام.

(18) يُنظر: د. عدنان النحوي، الحداثة من منظور إيماني، وتقويم نظرية الحداثة، ود. حلمي القاعود، الحداثة تعود، وعوض القرني، الحداثة ميزان الإسلام.

(19) (معنى الوجود) عند الإمام الصدر: هو مفهوم يربط الإنسان بالغيب وبالعالم الآخر ويربط عمله بالجزاء الآخروي.

(20) محمد باقر الصدر، الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية: 134.

(21) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة: 66-69.

(22) محمد باقر الصدر، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء: 10.

(23) العقلانية هنا لا تشير إلى المذهب العقلاني، بل هذا المفهوم يعبِّر عن إعطاء قيمة للعقل.

(24) يُنظر: د. عامر عبد الأمير، آفاق الحداثة في فكر الإمام محمد باقر الصدر: 42.

(25) صدر هذا الكتاب عن الدار التونسية للنشر، تونس، 1991م.

(26) يُنظر: زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات: 81.

(27) العلق:1.

(28) يُنظر: زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات: 82.

(29) يُنظر: المصدر نفسه: 86.

(30) البقرة 73، و242، والأنعام: 151، ويوسف:2، والنور: 61، والزخرف:.

(31) البقرة: 44 و76، وآل عمران: 65، والأنعام: 32، والأعراف: 169.

(32) يُنظر: محمد جواد مغنية، نفحات محمدية: 86.

(33) محمد باقر المجلسي بحار الأنوار: 2: 25، سُنن ابن ماجه: 1، 89/2 نقلاً عن منية المريد: 22.

(34) محمد محسن الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء:1: 13 نقلاً عن منية المريد: 22.

(35) إحياء علوم الدين:1: 7، ميزان الاعتدال: 2: 235 نقلاً عن منية المريد: 21.

(36) الطلاق:12.

(37) الشيخ زين الدين العاملي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد: 93.

(38) الإسراء: 85.

(39) محمد جواد مغنية, نفحات محمدية: 94-95، مصدر سابق.

(40) زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات: 88، مصدر سابق.

(41) يونس: 49.

(42) الأنعام: 34.

(43) محمد: 10.

(44) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية: 55-68.

(45) البقرة: 170.

(46) الزخرف: 22.

(47) يُنظر: زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات: 89.

(48) الإسراء: 9.

(49) يُنظر: محمد جواد مغنية، نفحات محمدية: 177.

(50) المائدة: 2.

(51) يُنظر: محمد جواد مغنية، نفحات محمدية: 177.

(52) محمد ري شهري، ميزان الحكمة: 2: 407.

(53) محمد جواد مغنية، في ظلال نهج البلاغة: 4: 243.

(54) المصدر نفسه:4: 343.

(55) العصر: 1-3.

(56) محمد ري شهري، ميزان الحكمة: 4: 234.

(57) المصدر نفسه.

(58) يُنظر: زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات: 90.

المصـــــادر

القرآن الكريم

1- إحياء علوم الدين، أبي حامد محمد الغزالي الطوسي(ت 505هـ)، بيروت ــ لبنان، شركة دار الأرقم، ط1، 1419هـ ــ 1998م.

2- الإسلام كبديل، مراد هوفمان، ترجمة: م. محمد مصطفى مازح، بيروت، بدون ذكر الناشر، 1993م.

3- الإسلام والحداثة، د. مصطفى الشريف، دار الفكر العربي، مكتبة الإسكندرية، 1991م.

4- الإسلام يقود الحياة، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ــ لبنان، 1990م.

5- اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، د. برهان غليون، بيروت، دار التنوير، 1987م.

6- آفاق الحداثة في فكر الإمام محمد باقر الصدر، الأستاذ ــ العدد (303) لسنة 1433هـ ــ 2013م.

7- الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية، محمد باقر الصدر، دار الكتاب الإيراني، طهران، ط1، 1981م.

8- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت 1111هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1403هـ.

9- تقويم نظرية الحداثة، د. عدنان النحوي، الرياض، دار النحوي، 1992م.

10- الحداثة أسلوب جديد في حرب الإسلام، جمعان العائض الزهراني، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، 1989م.

11- الحداثة تعود، د. حلمي القاعود، الرياض، دار المعارج، 1412هـ.

12- الحداثة في الشعر العربي المعاصر، د. محمد العبد حمود، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1406هـ.
13- الحداثة من منظور إيماني، د. عدنان النحوي، الرياض، دار النحوي.
14- الحداثة ميزان الإسلام، عوض القرني، القاهرة، دار هجر، 1408هـ.
15- خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ــ لبنان، 1979م.
16- رسالتنا، محمد باقر الصدر، طبع على نفقة دار التوحيد للتوزيع،(بدون تأريخ).
17- سُنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت 275هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، 1395هـ.
18- الصحاح في اللغة والعلوم، نديم مرعشلي ــ أسامة مرعشلي، تقديم: الشيخ عبد الله العلايلي، ط1، دار الحضارة العربية، بيروت، 1975م.
19- الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات، زكي الميلاد، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 1999م.
20- فلسفة التأريخ من خلال كتابات الإمام الصدر، د. محمد عبد اللاوي، مؤسسة دار الإسلام، لندن، 1996م.
21- فلسفة الصدر، د. محمد عبد اللاوي، مؤسسة المعارف للمطبوعات، بيروت، ط2، 2001م.
22- في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، منشورات كلمة الحق، قم، ط2، 1428هـ.
23- قاموس أكسفورد الحديث.

24- المحجة البيضاء في إحياء الأحياء، محمد محسن الفيض الكاشاني(ت 1091هـ)، المكتبة الإسلامية، طهران.
25- المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط2، 1981م، المتضمن موضوع: (عناصر المجتمع في القرآن الكريم).
26- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004م.
27- مقاربة بين مفهوم الحداثة وما بعد الحداثة، د. أحمد محمد زايد، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين، قسم الدعوة والإرشاد الإسلامية، القاهرة، 1992م.
28- منية المريد، الشيخ زين الدين بن علي بن أحمد العاملي (ت 965هـ)، قم، 1409هـ، واستعملت أيضاً في بعض الهوامش طبعة بغداد، تحقيق: علي جهاد الحساني، بدون تأريخ.
29- ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد الذهبي، القاهرة، ط1، 1382هـ.
30- ميزان الحكمة، محمدي ري شهري، بيروت، الدار الإسلامية، 1985م.
31- نفحات محمدية تفسير أحاديث للرسول الأعظم، محمد جواد مغنية، دار ومكتبة الهلال، دار الجواد، بيروت ــ لبنان، 1986م.
32- نقد الحداثة، آلان تورين، ترجمة: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة السورية، ط1، 1998م.

الحداثة في الإسلام دراسة قرآنية

م.د. قيس عبد الله أحمد

Abstract

The modernism is an advanced philosophy that paves the way to create infrastructure in the society based on intellectuality, reasons, democracy, globalization; it is represented in its reality an elite preach and not the preach of the society.

The modernism is a progressed preach

and it converts from a phenomena having connection with the social change or social progress to a philosophical intellectual phenomena surrounded with theories , and ideas and not surrounded with the reality and the society.

The modernism in its western picture is characterized with the negation of the human's spiritual side and resulted into separating the politics from the religion. Thus, it considers the metaphysical matters are merely as sediments in past historical stage and giving the alternate that being represented in a human , freedom and mind that result into progress and science.

The modernism in the Islamic thought is considered an invitation to development and progress due to the human's vision where physical, intellectual and spiritual dimensions are completed . The first Ayah in the Holy Quran is " Ought to Read" , this means that Quran hugely concerns over the science and knowledge , besides , the prestige Islam gives to the intellectuality proves that Islam is away from inaction and closure.

Holy Quran uncovers social, historic and natural laws and regulations that control the history movement in many Ayahs , this indicates that Islam in its core is a struggle for the sake of better life and thus the Islam connects between the religion and life.